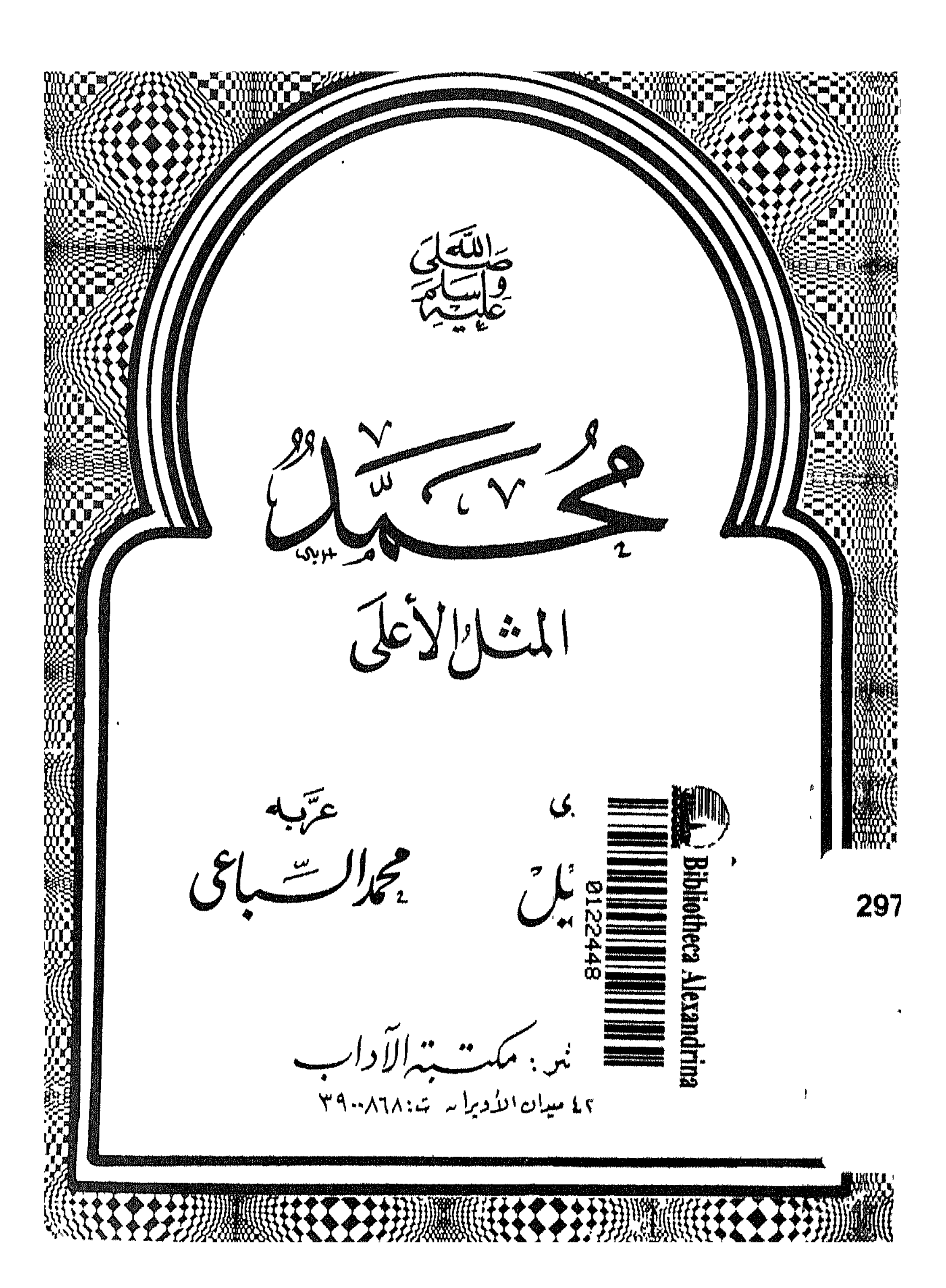

صلى الله عليه وسلم
محمد
المثل الأعلى
ى
يل
عربه
محمد السباعي
نشر: مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا ت: ٣٩٠٠٨٦٨
Bibliotheca Alexandrina
0122448
297



المثل الأعلى

للمؤرخ الإنجليزي

توماس كارليل

عربه

محمد السباعي

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
ت: ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

رقم الإيداع ٥٣٢٢ / ١٩٩١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-241-033-8

ذو الحجة ١٤١٣ هـ - مايو ١٩٩٣ م

فهرست الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد .. فإن المسلم وظيفته الحقيقية إقامة الحق ومقاومة الباطل. وإقامة الحق لها أوجه متعددة ، كما أن مقاومة الباطل لها أيضا أوجه متعددة .

وبين أيدينا ها هنا رسالة أراد صاحبها ـ وهو نصرانى من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر ـ وأعظم فلاسفة الإنجليز قاطبة ، أن يُحق بها حقاً ويبطل باطلا . فلقد هاله ما تعرضت له شخصية الرسول ﷺ من تجن وظلم ، فبحث وتقصى حتى أدرك جوانب العظمة ومواطن التقدير والإكبار فى ذلك الذى « أدبه ربه فأحسن تأديبه » ، فعرض لها فى موضوعية وحيدة جديرتان بالتقدير .

ولقد شجعنا ما وجدناه فى هذه الرسالة من إنصاف ونزاهة مقصد إلى إعادة نشرها عن ترجمة المغفور له الأديب محمد السباعى .

ولكن لفتنا أثناء الطبع ، أن المؤلف ، وإن كنا لا نبخسه حقه

من الثناء على روعة فكره وصفاء ذهنه وروحه وشجاعته وصدق مقصده ـ قد وقع فى بعض الأخطاء فى تقييم الحقيقة الإسلامية ؛ إذ نزع فى بعض فهمه إلى ما أشاعه بعض المستشرقين ومؤرخى الغرب المغرضين منه دس لبعض الأباطيل والأكاذيب التاريخية ، لذا فإنه وإن أدرك بعض جوانب عظمة الإسلام ، فقد غابت عنه جوانب أعظم . . لو علمها لسكان بما لمسناه فيه من روح الإنصاف وإحقاق الحق من كبار دعاة المسلمين .

ولقد رأينا عند إعادة نشر هذه الرسالة عن ترجمة الأديب محمد السباعى أن نطبعها كما هى دون إضافة أو حذف أى حرف من النص الأصلى ، ولكن واجبنا يقتضينا أن نعلق فى الهامش على ما يستوجب تصحيح المفاهيم ، وإعادة الحق إلى نصابه ، وهداية الإنسانية إلى الحقيقة الذاتية عنها ألا وهى كلمة التوحيد .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ؟

مكتبة الآداب

ذو الحجة ١٤١٣ هـ
مايو ١٩٩٣ م

المؤلف

توماس كارليل : ١٧٩٥ — ١٨٨١

فيلسوف ومؤرخ وأديب انجليزى . من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر . تأثر بجوته وشيلر وترجم بعض أعمالهما . انتقد المجتمع الانجليزى فى أول أعماله « سارتور رزارتوس » ١٨٣٤ .

ولقد آمن كارليل بأهمية ودور البطولات والشخصيات القيادية فى صناعة التاريخ وإصلاح المجتمع ، وكتب فى ذلك كتابه « الأبطال والبطولة ، والبطولة والتاريخ سنة ١٨٤١ . وكان كارليل من أبرز شخصيات عصره وتأثر به الكثيرون من أمثال جون رسكن وماثيو أرنولد .

المترجم

محمد السباعى :

محمد بن محمد بن عبد الوهاب السباعى ، منشىء بليغ ، من كبار المترجمين عن الإنجليزية بمصر . مولده ووفاته بالقاهرة ١٢٩٨-١٣٥٠ هـ ١٨٨١ - ١٩٣١ م ترجم « الأبطال لتوماس كارليل T. Carlyle وقصة مدينتين » لدكنز (طبع)

و « بلاغة الإنجليز » ثلاثة أجزاء (طبع) ويسمى مختارات لوبين ، و « التربية » (طبع) لسبنسر . ورسائل لأديسون . ومقالة ماكولى عن حياة لأديسون أيضاً (طبع) . والسمر والسمور كلاهما مقالات ومذكرات (طبع) . وأبطال مصر فى السياسة المصرية وبعض رجالها . وبعد وفاته جمع ابنه يوسف السباعى (الأديب والكاتب القصصى توفى ١٩٧٨) مائة قصة مما كتبه والده صاحب الترجمة أو نقله عن الإنجليزية ونشرها فى مجلد واحد سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م

البطل[1] فى صورة رسول

محمـــد بن عبد الله

ننتقل الآن من تلك العصور الناشئة ـ عصور الوثنية الشمالية ـ إلى دين آخر فى أمة أخرى ـ دين الإسلام فى أمة العرب ـ وما هى إلا نقلة بعيدة وبون شاسع ، بل أى رفعة وارتقاء نراه هنا فى أحوال العالم العامة وأفكاره !.

فى هذا الطور الجديد، لم ير الناس فى بطلهم إلها، بل رسولا يوحى من الإله ، وهذه هى الصورة الثانية للبطل ، فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ، ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم ، بل لنا أن نسأل أكان من أى ناس قط ، أنهم عمدوا إلى رجل يرونه ويلمسونه ، فقالوا هذا خالق الكون ؟ أنا لا أظن ذلك ، إنما يقولون هذا القول فى رجل يتذكرونه ، أو كانوا رأوه ، على أن هذا أيضا لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ، ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطة وحشية فاحشة ، ولكن فلنقل إن الرجل العظيم ما برح فى جميع الأزمان لغزاً من الألغاز ،

---

(١) الرسالة والنبوة عندنا ـ معشر المسلمين ـ أمر غير مكتسب بل هى وحى إلهى وهبة من الله . لذلك ليس لنا أن نستعمل ـــ كمسلمين ـــ هذه الألفاظ وإن استعملها المستشرق لأنها على قدر فهمه .

لا ندرى كيف نفسره ، ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم مزايا جيل من الأجيال ، هي كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه كإله أو كنبي ، أو كيفما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر ، ومن طريق إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم في ذلك الأمر ، يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .

فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً - أعني من ذات الله ، فهو جنس واحد : « أودين » أو « لوثر » أو « جونسون » أو « بارنز » وأرجو أن أوفق إلى إفهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر ، إلا الهيئة التي يكتسونها هم ، أو الطريقة التي يستقبلها بها أهل زمنهم .

من أكبر العار القول إن محمداً كذاب :

لقد أصبح من أكبر العار ، على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس(١) أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها ، وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله

(١) الآن أكثر من ألف مليون نسمة .

هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها أن لا تخلق .

فوا أسفاه ما أسوأ هذا الزعم، وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة .

قلوب خبيثة :

وبعد ، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء ! فإنها نتائج جيل كفري وعصر جحود وإلحاد ، وهى دليل على خبث القلوب ، وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان ، وأهل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألأم .

الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب .

فكيف يوجد ديناً(1) ؟

وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا ويلشره، عجباً والله . إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتا من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه ببيت ، وإنما هو تل من الأنقاض ، وكثيب من أخلاط المواد ، نعم، وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرناً ، يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم كأنه لم يكن .

---

(1) الرسول ﷺ لم يوجد الدين ، وإنما هو مبلغ لهذا الدين .

قوانين الطبيعة :

وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة ، وإلا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته ، وكذب والله ما يذيعه أولئك الكفار ، ولن زخرفوه حتى خيلوه حقا ، وزور وباطل ولن زينوه حتى أوهموه صدقاً ، ومصيبة والله، ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأمماً بهذه الأضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرتُ لكم من قبيل الأوراق المالية المزوّرة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ، ويحيق مصابها بالغير لا به ، وأى مصاب وأبيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسوية وأشباهها من الفتن والمحن ، تصيح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة ! »

الرجل الكبير :

أما الرجل الكبير خاصة ، فإنى أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإنى أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة ، وعندى أنه ما كان رجل كبير -: ميرابو ، أو نابليون ، أو بارنز ، أو كرمويل - كفؤا للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول ، أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شىء .

إخلاص الرجل الكبير :

بل أقول إن الإخلاص — الإخلاص الحر العميق الكبير — هو

أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر على الناس بإخلاصه ، كلا فإن هذا حقير جداً وأيم الله — هذا إخلاص سطحي وقح — وهو في الغالب غرور وفتنة إنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه كلا ولا يشعر به، بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص، إذ أين ذلك الذي يستطيع أنه يلزم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم ، إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه قط ، بل هو لا يسأل نفسه أهي مخلصة ، أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه ، سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله — حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول ، هكذا خلق الله ذهنه ، وخلاقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته ، هو يرى الكون مدهشاً وعظيماً وحقاً كالموت ، وحقاً كالحياة. وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى ، وخبطوا في غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه وتحت عينيه كأنها مكتوبة بحروف من اللهب ، لاشك فيها ولا ريب ، ها هي ! ها هي — فاعرفوا هداكم الله أن هذه هي أولى صفات العظيم ، وهذا حده الجوهري وتعريفه ، وقد توجد هذه في الرجل الصغير، فهي جديرة أن توجد في نفس كل إنسان خلقه الله ، ولكنها من لوازم الرجل العظيم ، فلا يكون الرجل عظيماً إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافي الجوهر كريم العنصر

— فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسميه شاعراً أو نبياً أو إلهاً(١)، وسواء هذا أو ذاك ، فقد نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء ، نعم هو يرى باطن كل شيء ، لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات ، وسخيف الأوهام والآراء ، وكيف وأن الحقيقة لتسطع لديه حتى يكاد يعشى لنورها .

كلمات الرجل العظيم :

ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم ، شاعراً كان أو فيلسوفاً أو نبياً أو فارساً أو ملكاً ، ألا تراها ضرباً من الوحي(٢) ! والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء وقد دل الله على وجوده بعدة آيات ، أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة ، فوجب علينا أن نصغي إليه قبل كل شيء .

وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان ، أو غير ذلك من الحقائر والصغائر ، وما الرسالة التي أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول(٣) ، كلا ما محمد

(١) هذا من الخلط الذي لا يسيغه المسلم .

(٢) الوحي الإلهي لا يكون إلا للأنبياء وعن طريق الملائكة وليس ككلام الشعراء أو الفلاسفة .

(٣) هذا على حد فهمه ، أما عندنا فهو مرسل من الله تعالى لا من العالم المجهول .

بالكاذب ولا الملفق وإنما هو لمحة من الحياة قد تنطر عنها قلب الطبيعة فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

هفوات الرجل العظيم :

وهب لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات — وأى إنسان لا يخطىء إلا من عصمه الله وحده — فإنه ليس بطاقة أية هفوات أو غلطات أن تودى بتلك الحقيقة الكبرى ، وهى أنه رجل صادق ونبى مرسل .

وأراكم على العموم تجسمون الهفوات وتجعلون من الجزئيات حجباً تستر هذه الحقائق الكلية — الهفوات ؟ أيحسب الناس أنه يخلو منها إنسان ؟ إن أكبر الهفوات عندى أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات ، ما بال الناس لا يذكرون نبى الله داود ؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام(١) ؟ ألا ما أهون أمر الذنوب وأصغر خطر الأغلاط — الجزئيات والقشور — إذا كان لبابها كريماً وسرها حراً شريفاً ، وكان فى التوبة النصوح ، والندم الصادق ، ووخز الضمير ، ولذع الذاكرة ، أكبر مكفر للسيئات ، ومطهر لأدران الروح من أدران الشوائب ، أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟ إنما ألأم الذنب هو كما قلت حسبان المرء أنه برىء من كل ذنب ، وكل نفس هذا شأنها ، فهى فى نظرى مطلقة من الوفاء والمروءة ، بعيدة عن النقى والبر والحق — أو هى ميتة ، أو إن تشأ فقل هى نقية نقاء

---

(١) هــذا القول من أكاذيب اليهود وأضاليلهم التى أشاعوها بين الناس .

الزمل الجاف الميت ، وإنى أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مزاميره(1)، لأصدق آية على ارتقاء المرء في مدارج المكرمات ، وعلى حربه العقل والهوى — حربا طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه ، وتتركه لقى(2) مشفيا(3) على الانقراض ، ولكنها حرب يفهم نهاية مشفوعة أبداً بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق ، الذى لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة .

يا ويل النفس الإنسانية ما أشد خطبها بين ضعفها وقوة شهواتها ، أوليست حياة الإنسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل في استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق في ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة إلا لأخرى ، وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات ، وإنما الأمر المهم هو : أيظفر بمراده بعد كل هذه المجاهدات ؟ وإنا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقا ، والصميم صحيحا ، وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة إنسان(4) .

العرب وصفة جزيرة العرب :

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة ، تسكن بلاداً كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان ثمت شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة ، كما كان ينبسط من عبوس وجوه البلاد ، رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وكلاء ،

(1) سبق القول أن هذا افتراء لا يعتمد عليه .

(2) ملقى . (3) مقارب . (4) هذا الكلام لا ينطبق على الأنبياء .

وكان الأعرابي صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه ، إذ كان يسكن أرضا قفراً يبابا خرساء ، تخالها بحراً من الرمل يصطلي جمرة النهار طوله ، ويكافح بصدر وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيضحى ، وأما بالعشي فيخصر

ولا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار ، يحادثون ظواهر الطبيعة ، ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون اذكياء القلوب ، حداد الخواطر ، خفاف الحركة ثاقبي النظر ، وإذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق ، فالعرب لا شك طليانه ، والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيكم أم الفضائل ، وذروة الشرف الباذخ ، وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحر له ، فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ، ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم عن أن يقاتله متى عادت به إليه الفرص ، وكان العربي أغلب وقته صامتا ، فإذا قال أفصح .

ويزعمون أن العرب من عنصر اليهود ، والحقيقة أنهم شاركوا اليهود في مرارة الجد ، وخالفوهم في حلاوة الشمائل ، ورقة الظرف . وفي ألمعية القريحة ، وأريحية الطبع ، وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات في الشعر ، يجرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ، حيث كانت تقام أسواق التجارة ، فإذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ، ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا ، والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوعرة ، يرتاحون لنغمات القصيد ،

ويجدون لرناتها آية لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش ، ويتهالكون

التدين فى العرب :

وأرى لهؤلاء العرب صفة من صفات الإسرائيليين واضحة فيهم . وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والعامل بتغذيتها ألا وهو التدين ، فإنهم كانوا ، ما برحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان ، كانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية ، يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته ، فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع وجوهه ، فإن مصنوعات الله ما برحت وجه مظاهره وآياته ودلائل عليه ، أليس كما قدمت نعتقدها مفخرة للشاعر وفضيلة ، أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو « أسرار الجمال الشعرى » كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أحبار قبيلته ومرشدها حسبما يعتقده ويبلغ عليه رأيه(١) . ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ، ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد ، وأى تقوى وإخلاص قد يكون لهؤلاء البدو المفكرين ؟

سفر أيوب كتب فى بلاد العرب :

وقد اتفق النقاد أن « سفر أيوب » أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب فى بلاد العرب . ورأيى فى هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب(٢) ، ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين ، لما فيه من عمومية

(١) هذا خلط بين النبوة وبين زعامة القبيلة .
(٢) هذا اعتراف منه بأن التوراة مكتوبة لا منزلة .

الأفكار مع شرفها وسموها — عمومية تخالف التعصب والتحزب ، وحسب الكتاب شرفا أن يكون يضرب بعرق في كل نفس ، ويمت بصلة إلى كل قلب ، ويكون كالبيت يفضي إليه مفترق السبل ، وكالأرج الضائع[1] تتنازعه جميع الأنوف. والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل : حياة الإنسان وفعل الله به في هذه الدار ، وقد أتانا بذلك في أنصع بيان ، وأشد إخلاص ، وأحسن سهولة .

وإني لأتبين فيه العين البصيرة ، والقلب النافذ الفهم ، الجم الخشوع ، فهو الحق من حيث جئته ، والنظر الراسب في قرارة كل شيء وصميم كل أمر — مادي روحاني ، ألا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرس : «الله الذي أودع الرعد حنجرته[2]» ، «فهل ترى صهيله إلا قهقهة لرؤية الرماح» ، هذا والله أجود الاستعارة ، وما أحسب أن في عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه ، ذلك في الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف ، والنوكل الحسن الجميل ، وما قرأت فيه قط إلا حسبت فيه قلب الإنسانية يترنم شجى ووجداً ، ودمع الإنسانية يفيض حرقة وكمداً ، فيا لها من رقة في شدة ، ورأفة في قوة ، وما أشبهها إلا بسحر الليلة الصائفة رقة نسيم في جلال مشهد عظيم ، وإلا بالسكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار ، وما أحسب أن في جميع التوراة شيئاً يدانيه فضلا وقيمة .

الحجر الأسود والكعبة :

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ، ولا يزال للآن

(١) ضاع المسك إذا انتشرت رائحته بقوة .

(٢) أي أودع في حنجرة الفرس قوة الرعد .

بمكة فى البناء المسمى « الكعبة » . وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيسلاس » الكعبة فقال : إنها كانت فى مدته أشرف معابد العالم طرآ وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بخمسين عاما ، وقال المؤرخ «سالفشاردى ساسى» إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات ، فإذا صح ذلك[1] فلابد أن إنسانا قد بصر به ساقطا من الجو ! والحجر موجود الآن الى جانب البئر زمزم ، والكعبة مبنية فوقهما .

بئر زمزم :

والبئر كما تعلمون منظر حيثما كان سار مفرح ، ينبجس الماء من الحجر الأصم ، كالحياة من الموت ، فما بالكم بها إذا كانت تفيض .

ولقد اشتق لها اسمها « زمزم » من صوت تفجرها وهديرها ، والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضاً من الله وشفاء ، وقد قدسها العرب والحجر الأسود ، وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين .

الكعبة :

وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ؟ فهى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التي يرسلها السلطان كل عام ، يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من العمد وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف عجيبة ، وستوقد تلك المصابيح الليلة وتشرق تحت النجوم المشرقة ، فنعم أثر الماضى

(١) الحجر الأسود من حجارة الجنة كما أخبرنا الرسول ﷺ فى صحيح الحديث .

هى ونعم ميراث الغابر ، هذه كعبة المسلمين ، ومن أقاصى المشرق إلى أخريات المغرب ، — من دلهى إلى مراكش تتوجه أبصار العديد الجمهور من عباد الله المصلين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها ، خمس مرات هذا اليوم وكل يوم ، نعم هى والله من أجل مراكز المعمورة وأشرف أقطابها .

ومن شرف البئر زمزم ، وقدسية الحجر الأسود ، ومن حج القبائل إلى ذلك المكان كان منشأ مدينة مكة ، ولقد كانت هذه المدينة وقتاً ما ذات بال وشأن ، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها(١) ، وموقعها من حيث هى مدينة سىء جداً ؛ إذ هى واقعة فى بطن من الأرض كثير الرمال ، وسط هضاب قفرة ، وتلال مجدبة ، على مسافة بعيدة من البحر ، يمتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ، ولكن الذى اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ، ثم إن أماكن الحج ما زالت من قديم الزمان تستدعى التجارة ، فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه التجار كذلك والباعة ، والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض ، رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم يكن فى الحسبان ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها ، والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر ، بل وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها فى حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين ومموردين لبضائع الشرق والغرب ، وباعة

(١) بل لم تفقد قيمتها فى أفئدة المسلمين .

للمأكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الارستوقراطية ، عليها صبغة دينية ، وذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير منظمة ، عشرة رجال من قبيلة عظمى ، فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة ، وكانت القريش في عهد محمد (وأسرة محمد من قبيلة قريش) وكان سائر الأمة مبدداً في أنحاء تلك الرمال ، قبائل تفصل بين الواحدة والأخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء . وربما كان الأمير راعيا أو ناقل أمتعة ، ويكون في الغالب غازيا !!! وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم سلف على إلا التقاؤهم بالكعبة ، حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد ورابطة الدم واللغة ، وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً خاملي الذكر غامضي الشأن — أناساً ذوي مناقب جليلة وصفات كبيرة ، ينتظرون من حيث لا يشعرون ، اليوم الذي يشاد فيه بذكرهم ويطير في الآفاق صيتهم ، ويرتفع إلى عنان السماء صوتهم ، وما ذلك ببعيد ، وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال ، وآذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء من أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة — أعني حياة المسيح ووفاته(1) وهي التي أحدثت انقلابا هائلا في جميع سكان العالم — فلم تعدم هذه الأنباء تأثيرها من الفوران في أحشاء الأمة العربية .

مولد محمد ونشأته :

وكان بين هؤلاء العرب التي تلك حالهم ، أن ولد محمد (عليه

(1) الصحيح رفعه كما أخبرنا القرآن .

السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات أبوه عقب مولده ، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه ـ وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جده وهو شيخ قد ناهز المائة من عمره وكان صالحاً باراً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه ، فأبصرت عينه المرحمة في محمد صورة عبد الله ، فأحب اليتيم الصغير بملء قلبه ، وكان يقول ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجليل ، الذي قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسناً وفضلا ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين، عهد به إلى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده ، فرباه عمه ـ وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل ـ على أحسن نظام عربي .

سفره للشام والتقاؤه بالراهب بحيرا :

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه . وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلا يتبع عمه في الحروب[1] ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذلك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين ـ رحلة إلى مشارف الشام ، إذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره ، أعني الديانة المسيحية[2] ، وإني لست أدري ما ذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس « بحيرا » الذي يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار ، ولا ماذا

(١) حرب الفجار ، حرب كانت بين قريش ومن معهما من كنانة وقيس عيلان وكان النبي ﷺ في العشرين حين حضر هـــذه الحرب مع عمومته . (٢) هذا من الغمز الرفيع ؛ فإن النبي ﷺ ذهب مع عمه أبي طالب الذي ذهب للتجارة ، وكان بحيرا على عقيدة أن عيسى رسول الله ، وبشر أبا طالب بأن من معه هو خاتم الرسل .

سماه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما(١)، فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشر، ولم يعرف إلا لغته، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره إلا خليطاً مشوشاً، من أشياء ينكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون، فأقامت في ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى، وتحلها له يد الزمن يوماً ما، فتخرج منها آراء وعقائد، ونظرات نافذات، فلعل هذه الرحلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير، وفوائد جمة.

أمية محمد:

ثم لا ننسى شيئاً آخر، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه، ويتلقاه بفؤاده، من هذا السكون العديم النهاية، وعجيب وأيم الله أمية محمد، نعم أنه لم يعرف من العالم، ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه، أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم، لا قديمها ولا حديثها، لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك، ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يك في جميع أشباهه من الأنبياء

(١) كانت حياته ﷺ وصباه ورحلاته وخبراته وتجاربه تهيئة لتلقيه الوحي وتربية له، وليس له في ذلك من معلم إلا الله.

والعظماء – أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادئة فى ظلمات الدهور – من كان بين محمد وبينه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره .

صدق محمد منذ طفولته :

ولوحظ عليه منذ فتائه[1] أنه كان شاباً مفكراً ، وقد سماه رفقاؤه الأمين – رجل الصدق والوفاء – الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره ، وقد لاحظوا أن ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة ، وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت ، يسكت حيث لا موجب للكلام ، فإذا نطق ، فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أنار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حجته ، واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا ، وقد رأيناه طول حياته ، رجلا راسخ المبدإ ، صارم العزم ، بعيد الهمة ، كريماً براً رءوفاً تقياً فاضلا حراً – رجلا شديد الجد مخلصاً ، وهو مع ذلك سهل الجانب ، لين العريكة[2] ، جم البشر[3] والطلاقة ، حميد العشرة ، حلو الإيناس ، بل ربما مازح وداعب .

الابتسام الصادق والكاذب :

وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله – هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا ، وكان محمد جميل الوجه وضىء الطلعة

---

(١) أى فتوته . (٢) لين : يكون الآن أى يستعمل الرقة واللين رغم قوته . (٣) أى بشوش .

حسن القامة ، زاهى اللون(١) ، له عينان سوداوان ، تتلألآن ، وإنى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى كان ينتفخ ويسودّ فى حال غضبه كالعرق المقوس الوارد فى قصة « القفازة الحمراء لوالتر سكوت » وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ، ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر ، نعم لقد كان هذا الرجل حاد الطبع ، نارى المزاج ، ولكنه كان عادلا صادق النية ، كان ذكى اللب ، شهم الفؤاد :

لوذعياً كأنما بين جنبيه ٭ مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئاً ناراً ونوراً ، رجلا عظيما بفطرته ، لم تثقفه مدرسة ، ولا هذّبه معلم ، وهو غنى عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح ، فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

عيشته الطاهرة وزواجه بخديجة :

وما ألذّ وما أوضح قصته مع خديجة، وكيف أنه كان أولاً يسافر فى تجارات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان ينهج فى ذلك أقوم مناهج الحزم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد ، وحبها ينمو ، ولما زوّجت منه كانت فى الأربعين ، وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة ، ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق ، وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها .

ومما يبطل دعوى القائلين (أن محمداً لم يكن صادقا فى رسالته بل كان ملفقا مزوراً) أنه قضى عنفوان شبابه ، وحرارة صباه ، فى تلك

(١) كان ﷺ أزهر اللون .

العيشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوى ، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك إلا بعد الاربعين أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا التاريخ تبتدىء حوادثه وشواذه ، حقيقية كانت أو مختلقة[1] ، وفى هذا التاريخ توفيت خديجة ، نعم لقد كان حتى ذلك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن ، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه ، وجميل ظنونهم به ، ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب ، وأقبل المشيب ، أن فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجعا ، وثار يريد أمراً جليلا وشأنا عظيما .

محمد برىء من الطمع الدنيوى :

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ، ومفاخر الجاه والسلطان ، كلا وأيم الله ، لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات ، المتوقد المقلتين ، العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيراً ، وحناناً وبراً ، وحكمة وحجى[2] ، وأربة ونهى — أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه .

محمد مخلص نافذ البصيرة :

لا يرضى بالاصطلاحات الكاذبة

وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين ، فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات

(1) أى سواء حدثت أو اختلقتها عليه قريش .
(2) الحجى : العقل .

الكاذبة، يسيرون طبق الاعتبارات الباطلة ، إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بتبع الأباطيل ، لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة ، وبحقائق الأمور والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه ، وروائقه ومباهره ، لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « ها أنا ذا » فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية ، وكل القلوب واعية ، وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء ، وما زال منذ الأعوام الطوال — منذ أيام رحلاته وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار: ماذا أنا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي أعيش فيه ، والذي يسميه الناس كوناً ؟ وما هي الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور ، أو تلك القفار والفلوات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار ، واختلاف الليل والنهار ، ولا النجوم الزاهرة ، والأنواء الماطرة ، لم يجبه لا هذا ولا ذاك ، وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل والا ما أودع الله فيه من سره !

وهذا ما ينبغي لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه ، فقد أحس ذلك الرجل القفري ، أن هذه كبرى المسائل ، وأهم الأمور ، وكل شيء عديم الأهمية في جانبها ، وكان إذا بحث عن الجواب في فرق اليونان

الجدلية أو في روايات اليهود المبهمة، أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده.

الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ولا يتقيد بالعادات والتقاليد :

وقد قلت إن أهم خصائص البطل، وأول صفاته وآخرها هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن، فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها، جيدة كانت أو رديئة، وكان يقول في نفسه: « هذه الأوثان التي يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شيء ما هي إلا رمز له[1]، وإشارة إليه، وإلا فهي باطل وزور وقطع من الخشب لا تضر ولا تنفع » وما لهذا الرجل والأصنام! وأنى تؤثر في مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب، ولو عبدها الجحاجح[2] من عدنان، والأقيال[3] من حمير[4]؟ أي خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة؟ إنه في واد وهم في واد، هم يعمهون في ضلالهم وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الماثلة، فإما إن يجيبها، وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين. فأجبها يا محمد! أجب لابد من أن توجد الجواب، أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره؟ حمق وأيم الله وسخافة وهوس هذا الزعم، أي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من

(١) ما كان ﷺ يظن أن وراء الأصنام شيئاً، وإنما كانت عقيدته أنها باطل. (٢) جمع جحجاح وهو السيد (٣) جمع قيل وهو الملك.
(٤) بكسر الحاء وسكون الميم ملوك اليمن.

تيجان وصولجة ! وأين تصبح الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفي مشيخة مكة ، وتغيبه منخفض الطرف ، أو في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة ، منجاة للمرء ومظارة ؟ كلا — إذن فلنضرب صفحاً عن مذهب المجترئين القائل إن محمداً كاذب ولنعده مرافقهم عاراً وسبة وسخافة وحمقاً ولنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع .

اختلاء محمد بنفسه واعتزاله الناس في شهر رمضان :

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان ، فينقطع إلى السكون والوحدة ، دأب العرب وعادتهم ، ونعمت العادة ، ما أجل وأنفع ، ولا سيما لرجل كمحمد ، لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجي ضميره ، صامتاً بين الجبال الصامتة متفتحاً صدره لأصوات السكون الغامضة الخفية ، أجل حبذا تلك عادة ونعمت .

ابتداء البعثة :

فلما كان في الأربعين من عمره ، وقد خلا إلى نفسه في غار بجبل (حراء) قرب مكة شهر رمضان ، ليفكر في تلك المسائل الكبرى ، إذا هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد اصطحبها(1) ذلك العام وأنزلها قريباً من مكان خلوته ، فقال لها إنه بفضل الله قد استجلى غامض السر ، واستثار كامن الأمر ، وإنه قد أزالت الشبهة ، وانجلى الشك وبرح الخفاء ، وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه باطل ، خلقنا ويرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له

(1) أي بعد زواجه منها .

وستار يحجب النور الأبدى ، والرونق السرمدى ، الله أكبر ولله الحمد .

حقيقة الإسلام وكلمة (جوته) فيه :

ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ، ونذعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه ، وأن القوة كل القوة هى فى الاستنامة لحكمه والخضوع لحكمته ، والرضا بقسمته ، أية كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة ، ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزؤام ، فلنلقه بوجه مبسوط ، ونفس مغتبطة ، راضية ، ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو .

كلنا مسلمون :

ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جوته) : « إذا كان ذلك هو الإسلام ، فكلنا إذن مسلمون » نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم ، وقدماً قيل ، ان منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الإذعان للضرورة - فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ، ولا فضل فيما يأتيه الإنسان مكرهاً - بل فى اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هى خير ما يقع للانسان ، وأفضل ما يناله ، وان لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ؛ وأنه من الافن والسخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ، ميزانا لذلك العالم وأحواله ، بل عليه أن يعتقد أن للكون قانوناً عادلا ، وإن غاب عن إدراكه ، وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود ، والنفع لباب الحياة ، نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويأتيه فى سكوت وتقوى .

أقول وما زالت هذه الخطة المثلى ، والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيباً وظافراً ، وحراً وكريماً وسائراً على المنهج الأقوم وسالكاً سبيل السعادة ، وما دام معتصماً بحبل الله ، متمسكاً بقانون الطبيعة ، الأكبر الأمكن ، غير مبال بالقوانين السطحية ، والظواهر الوقتية ، وحسابات الربح والخسارة ؛ فهو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري — قطب رحى السكون ومحور الدهر — وليس بظافر إذا فعل غير ذلك ، وحقاً إن أول وسيلة تؤدي إلى اتباع هذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح ، بل لا شيء غيره صالح ! وهذا يا إخواني هو روح الإسلام ! وهذا هو أيضاً روح النصرانية ، والإسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية : والإسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء[1] ، وأن نفطم النفس عن الشهوات ونثني القلب عن الهوى ، وأن لا نجمح في عنان المنى ، وأن نصبر على البث والأسى ، وأن نعرف أننا لا نعرف شيئاً ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ، ونعدها يداً بيضاء ، ونعمة غراء ، ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول : « إنا بقسمة الله راضون ، ولو كان ما قسم لنا المنون » .

الوحي وجبريل :

فمن فضائل الإسلام : تضحية النفس في سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بني الأرض ، نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل ، فأنار ظلماتها ، هو ضياء باهر ، كشف تلك الظلمات التي

(١) الأصح أن النصرانية الصحيحة هي الإسلام دين عيسى عليه السلام.

كانت تؤذن بالخسران والهلاك، وقد سماه(١) محمد (عليه السلام) وحياً و(جبريل)، وأيضاً يستطيع أن يحدث له اسماً؟ ألم يجيء في الإنجيل أن وحي الله يهبنا الفهم والإدراك؟ ولاشك أن العلم والنفاذ إلى صميم الأمور وجواهر الأشياء لسر من أغمض الأسرار لا يكاد المتعلقون يلمسون منه إلا قشوره، وقد قال نوفاليس: (أليس الإيمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله؟) فشعور محمد اذا اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة، بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه لم يك إلا أمراً بديهياً.

معنى كلمة محمد رسول الله:

وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له، ونجاه من الهلاك والظلمة، وكونه قد أصبح مضطراً إلى إظهارها للعالم أجمع ــ هذا كله هو معنى كلمة (محمد رسول الله) وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين.

فضل السيدة خديجة، وعلي، وزيد بن حارثة:

ويخيل الينا ان الصالحة خديجة أصغت إليه في دهشة وشك، ثم آمنت وقالت «أي وربي إنه لحق» ونتخيل أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع. ورأى أن في إيمانها بكلمته الخاصة المقذوفة من بركان صدره، جميلاً يفوق كل ما أسدت إليه من قبل، فإنه ليس أروح لنفس المرء، ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكاً في اعتقاده، ولقد قال نوفيس: «ما رأيت شيئاً قط آكد ليقيني، وأوثق لاعتقادي من انضمام إنسان آخر إليّ في رأيي» نعم

(١) بل لم يسمه محمد ﷺ وحياً، وإنما هو وحي الله.

إنه لصنيع أغر ، ونعمة وفيرة ، وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجة حتى لقى ربه ، حتى أن عائشة — زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التى اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها — هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة ، سألته ذات يوم : « ألست الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها ، وأراك تحبنى أكثر مما كنت تحبها : » فأجابه محمد : كلا والله لست أفضل منها وكيف وهى التى آمنت بى والكل كافر ومنكر ، ولم يك لى فى هـذا العالم إلا صديق واحد — وهذا الصديق هى » . وقد آمن به مولاه زيد بن حارثة ، وعلى (عليه السلام) ، وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به .

الدعوة إلى الإسلام وما قاله محمد فى سبيلها :

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك ، فما كان يصادف إلا جحوداً وسخرية ، حتى أنه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ، ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث أدب(1) مأدبة لأربعين من ذوى قرابته ، ثم قام بينهم خطيباً ، فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأيهم يمد إليه يده ويأخذ بناصره ؟

مروءة على ونجدته :

وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب علىّ (كرم الله وجهه) — وكان غلاماً فى السادسة عشرة — وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح

(1) أدب بفتح الألف والدال : صنع طعاماً ودعا إليه الناس .

فى أحد" لمحة ، أنه ذاك النصير والظهير ، ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمداً ومعاديه ، وكلهم من ذوى قرابته ، وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على ، ولكن رؤية رجل كهل أمى يمينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه ، كانت مما يدعو إلى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمضحك ، بل كان نهاية فى الجد والخطار ، أما على فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه ، فإنه فتى شريف القدر ، كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ، ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة ، وكان أشجع من ليث ، ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف، ورأفة وحنان ، جدير بها فرسان الصليب فى القرون الوسطى ، وقد قتل بالكوفة غيلة ، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله ، حتى حسب كل إنسان عادلا مثله ، وقال قبل موته حينما أومر فى قاتله : « إنْ أعش فالأمر لى، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة ، وإن تعفوا أقرب إلى التقوى » .

استياء قريش من عمل محمد :

وكان فى عمل محمد هذا إساءة ولاشك إلى قريش ، حراس الكعبة وخدمة الأصنام ، وانضم إليه منهم رجلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ، وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال، وكان عمله بالطبع سوء الواقع لدى كل إنسان ، وجعلوا يقولون مَنْ هذا الذى يزعم أنه أعقل منا جميعاً ؟ والذى يعنفنا ويرمينا بالحق وعبادة الخشب ؟

نصيحة أبي طالب وعزيمة محمد :

وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم ، وأن لا يسخط القوم ويثير غضبهم عليه فيخطر(١) بذلك حياته ، فأجابه محمد : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته » كلا فإن في هذه الحقيقة التي جاء بها ، لشيئاً من عنصر الطبيعة(٢) ذاتها ، لا تفضله الشمس ولا القمر ، ولا أي مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر ، برغم الشمس والقمر ، مادام قد أراد أن تظهر ، وبرغم قريش جميعها ، وبكره سائر الخلائق والكائنات ، نعم لابد من أن تظهر ، ولا يسعها إلا أن تظهر ، بذلك أجابه محمد ؛ ويقال إنه « اغرورقت عيناه » اغرورقت عيناه لقد أحس من عمه البر والشفقة ، وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ، ولكنه أمر صعب المراس مر المذاق .

مواصلة محمد الدعوة واحتماله الشدائد :

واستمر يؤدي الرسالة إلى كل من أصغى إليه ، وينشر مذهبه بين الحجيج ، مدة إقامتهم بمكة ؛ ويستميل الأتباع هنا وهناك ، وهو يلاقي أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ، ومناصبة بالعداوة ؛ ومجاهرة وشراً بادياً وكامناً ؛ وكانت أقاربه تحميه وتدافع عنه ؛ ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة ، فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع ،

(١) أي يعرض حياته للخطر . (٢) بل هي من مخلوقات الله .

وضاعفت حنقهم عليه فنصبوا له الأشراك ؛ وبثوا له الحبائل ؛ وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم ؛ وكانت خديجة قد توفيت وتوفي أبو طالب ؛ وتعلمون أصلحكم الله أن محمداً ليس بحاجة إلى أن نرثي له ولحالة النكراء إذ ذاك ومقامه الضنك ، وموقفه الحرج ؛ ولكن اعرفوا مني أن حاله إذ ذاك من الشدة والبلاء لم ير مثلها إنسان قط ؛ فلقد كان يختبيء في الكهوف ويفر متنكراً إلى هذا المكان ؛ وإلى ذاك ؛ لا مأوى ولا مجير ؛ ولا ناصر ؛ تتهدده المهلكات ؛ وتفغر له أفواهها المنايا ؛ وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة — كاجفال فرس من أفراس أتباع محمد — فلو حدث ذلك اضاع كل شيء ؛ ولكن أمر محمد — ذلك الأمر العظيم ما كان لينتهي على مثل تلك الحال .

تألب قريش على محمد ليقتلوه ، وهجرته إلى المدينة :

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته ؛ وقد وجد أعداءه متألبين عليه وكانوا أربعين رجلاً ؛ كل رجل من قبيلة ؛ ائتمروا به ليقتلوه وألفى المقام بمكة مستحيلاً ، هاجر إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن « المدينة » أي مدينة النبي ، وهي من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ في المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية ، وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخاً كبيراً وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ، ويخلون

أمامه مسلكا وعراً ، وسبيلا قفراً وشطة نكراء موحشة . فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحركاً ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه ، فهيهات أن يجد بأوقات الأمل ، فيما يحدق به من عوابس الخطوب ، ويحيط به من كالحات المحن والملمات ، وهكذا شأن كل إنسان فى مثل هذه الأحوال .

الرد على القائلين بأن الإسلام انتشر بالسيف :

وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة ، والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجـــد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية ، وعدم الاصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة ـ عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه ، دفاع رجل ثم دفاع عربى ، ولسان حاله يقول: أما وقد أبت قريش إلا الحرب ، فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن ، وحقاً رأى فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق ، وشريعة الصدق ، وأبوا إلا تمادياً فى ضلالهم يستبيحون الحريم ، ويهتكون الحرمات ، ويسلبون وينهبون ، ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ، ويأتون كل إثم ومنكر ، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة ، فأبوا إلا عتواً وطغيانا ، فليجعل الأمر إذن إلى الحسام المهند ، والوشيج المقوم ، وإلى كل مسرودة حصداء ، وسابحة جرداء ، وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد ، لم يسترح غمضة عين وكانت النتيجة ما تعلمون(١) ؟

(١) كلامه السابق يؤخذ بحذر لأنه إن أنصف الإسلام فى نقطة يسىء إليه فى أخرى .

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه ، فشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون : ما كان الدين لينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق ، والرأى الجديد أول ما ينشأ يكون فى رأس رجل واحد ، فالذى يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم أجمع. فإذا تناول هذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا والله يضيع . وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة ، حسبما تقتضيه الحال . أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا ..؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف ، أم باللسان أم بأية آلة أخرى .

لا يصح إلا الصحيح :

فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار . لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم ، وليس فى طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها، بل هو أصلح وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط ، وما كان أعمق جذوراً فى الحق ، وأذهب أعراقاً فى الطبيعة ، فذلك هو الذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ، نامياً زاكياً وحده .

عدل الطبيعة :

أقول الطبيعة أعدل حكم ، بلى ، ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم انك تأخذ حبوب القمح لتجعلها فى بطن الأرض ، وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب ، وسائر أصناف الأقذار ، ولكن لا بأس عليك من ذلك ، والق الحبوب بجميع

ما يخالطها من القذى فى جوف الأرض العادلة البارة فإنها لا تعطيك إلا قمحاً خالصاً نقياً فأما القذى فإنها تبلعه فى سكون وتدفنه ولا تذكر عنه كلمة وما هى إلا برهة حتى ترى القمح زاكياً مهتزاً كأنه سبائك الذهب الإبريز، والأرض الكريمة قد طوت كشحاً على الأقذاء وأفنتها بل أنها حولتها كذلك إلى أشياء نافعة ولم اشك منها شجواً ولا نصباً، وهكذا الطبيعة فى جميع شؤونها هى حق لا باطل، وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون، وهى لا تشترط فى الشىء إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم، فإذا كان كذلك حمته وحرسته، أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه، فترى لكل شىء تحميه الطبيعة روحاً من الحق، اليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو شأن كل حقيقة كبرى، جاءت إلى هذه الدنيا أو تجىء فيما بعد؟ أعنى أن الحقيقة مزيج من حق وباطل، نور فى ظلام، وتجيئنا الحقائق فى أثواب من القضايا المنطقية والنظرات العلمية عن الكائنات. لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة، ثم لا بد من أن يجىء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها، فتموت وتذهب. نعم تموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبداً ويتخذ ثوباً أطهر، وبدناً أشرف، وما يزال ينتقل من الأثواب والأبدان من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود، سُنة الطبيعة التى لا تتبدل، نعم إن جوهر الحقيقة الكريم حى لا يموت وإنمـــا النقطة المهمة والأمر الوحيد الذى يعرض فى محكمة الطبيعة ومجلس قضائها، هو هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة؟ وليس يهم عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشىء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائى، ليس الأمر المهم عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك، هو أفيك أقذاء وأكدار أم لا؟ وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا؟

أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال المهم عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا ؟ بل أفيك قمح ؟ أيقول بعض الناس إنه نقى، إنى أقول له : نعم نقى — نقى جداً ولكنك قشر — ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح ومجـــرد اصطلاح وعادة، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقى ولا غير نقى ، وإنما أنت لا شيء، والطبيعة لا تعرفك وأنها منك براء .

قضاء محمد على وثنية العرب والعقائد الفاشية فى تلك الأيام

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ، ورواياتهم وبراهينهم ، ومزاعمهم وقضاياهم — نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق ، وعينه المتوقدة الجلية إلى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب ، أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهى منكر فظيع وكفر لو تعلمون ، إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقكم وبيده حياتكم وموتكم، وهو أرأف بكم منكم ، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به ، وأن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذى للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان ـ روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة ، وهى فى الحقيقة شيء واحد، وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان اماما كبيراً لهذا المعبد الأكبر : الكون جارياً على قواعد الخالق ، تابعا لقوانينه لا محاولا عبثا أن يقاومها ويدافعها ، ولم أعرف قط تعريفا للواجب

أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا ، فإن الفلاح فى ذلك (إذا كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) .

وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك ؟ وماذا أثمر ؟ أما أن الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقـــد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة ما بتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيـه وثنيات العرب ، وكل ما لم يكن بحق ، فإنما حطب ميت أكلته نار الإسلام . فذهب والنار لم تذهب .

القرآن وإعجازه

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الأمم المختلفة . هذا وأن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة(١) وحسن الصياغة ولذلك لا عجب إذا قلت أن الأوروبى يجد فى قراءة القرآن أكبر عناء ، فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال يقطع فى صفحاتها قفاراً من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلام ، لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأن لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه ، فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم ، وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع فى شؤون الحياة

(١) الأصح أن يقال بلاغته الإلهية .

ومسائلها . والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً ، يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ، ومصدر أحكام القضاء ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة ، وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة ، يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالي ، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوف من خلق الله وفي قلوبهم اثنى عشر قرنا في كل آن ولحظة ، ويقال إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة ! !

الإخلاص من فضائل القرآن :

إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد(١) فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم « براديه » وأمثاله أنه طائفة من الأكاذيب والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذاراً له عما كان يرتكب ويقترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ! ! ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال ، فإني لأمقت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الأكاذيب وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل . والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل(٢) كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال ، في الخلوات الصامتات ، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر ، وتتزاحم في صدره حتى لا تكاد تجد مخرجا ، وقل ما نطق به جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان الدفع الوقائع

(١) و (٢) هذا تعبير خاطىء ، والصحيح أنه وحي من الله .

وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول ، وتنميق الكلام ويا لها من خطوب كانت تلاطمه وتطاير ، فلقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطباً لرحى حوادث متلاطمات متصادمات وعالم كله هرج وفتن ومحن : حروب مع قريش والكفار ، ومخاصمات بين أصحابه(١) ، وهياج نفسه وثوراتها - كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح محمد الجادة البارية وهى تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدور بها دوامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نوراً هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه(٢) . أيزعم الآفاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ، ليكون قلب محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته فى نظره حقاً ، وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

الإخلاص منشأ الفضائل :

والإخلاص المحض الصراح يظهر لى أنه فضيلة القرآن التى حببته إلى العربى وهى أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهى منشأ فضائل غيرها ، بل لا شىء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى ، من العجب أن نرى فى القرآن عرقا من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم - أجل لقد كان لمحمد

(١) لم يحدث بين الصحابة مخاصمات إلا كما يكون بين الإخوة والأحباب . (٢) بل كان ﷺ مؤيداً بهداية الله لا يخيل إليه .

في شئون الحياة عين بصيرة ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع في أذهاننا كل ما أبصره ذهنه(١) .

القرآن على أسرار الأمور:

أنا لا أحفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأني أرى لها في الإنجيل شبهاً ، ولكني شديد الاعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار(٢) الأمور، فهذا أعظم ما يلذني ويعجبني، وهو ما أجده في القرآن ، وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء .

المعجزات في نظر الإسلام :

وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال : حسبكم بالكون معجزة انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله ؟ وآية على وجوده وعظمته ! هذه الأرض التي خلقها الله لكم ونهج لكم فيها سبلاً تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدرى من أين جاء وهو مسخر في السماء كل سحابة كارد أسود ثم يسيح بمائه ويهضب ليحيي أرضا مواتا ويخرج منها نباتاً ونخيلا وأعنابا : أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكلأ لبناً وهي فخر لكم . والسفن - وكثيراً ما يذكر السفن - كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز في سواء اليم ، لها حاد من الريح وبينما تسير إذا هي قد وقفت بغتة وقبض الله الريح ، معجزات والله كل هذه وأي معجزات بعدها تريدون ؟ ألستم أنتم معجزات ! لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا أبداً ثم لكم جمال وقوة وعقل ، ثم

(١) هو يرى أن في القرآن شعراً ، وهذا قول باطل : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ .   (٢) ليس نظراً وإنما هو كلام الله تعالى .

وهبكم الرحمة أشرف الصفات ، وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحوا غير موجودين » ثم وهبكم الرحمة » لقد أدهشتني جداً هذه الجملة ؛ فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم ! هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة. وكذلك أرى في محمـــد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال . وأتبين فيه عقلا راجحا عظيما وعيناً بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا ولو شاء لكان شاعراً فحلا أو فارسا بطلا ، أو ملكاً جليلا ، أو أي صنف من أصناف الأبطال . نعم لقد كان العالم في نظره معجزة أي معجزة . وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة ، وهو أن هذا الكون الصلب المادي إنما هو في الحقيقة لا شيء إنمـــا هو آية على وجود الله منظورة ملموسة وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لا غير . وكان يقول : هذه الجبال الشامخات ستنحل وتذوب مثل السحاب وتفنى، وكان يقول : الجبال أوتاد الأرض وإنها ستفنى كذلك يوم القيامة وأن الأرض في ذلك اليوم العظيم تتصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباءاً منثوراً ، فتنهدم ، وكان لا يزال واضحا لعينيه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ، ورونق باهر ، وهول عظيم ، هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة ، وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ، ولا يرونه شيئاً مقدساً ، بل لا يرونه شيئا واحداً وإنما هو أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال ، وتستعمل في تسيير السفن البخارية ، فسرعان ما تنسينا السكياويات

والحسابيات ما يكمن فى الكائنات من سر الله ، وما أخش ذلك النسيان عاراً ، وأكبر هذه الغفلة إثما ، وإذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر إذن ، فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية - بقلة ذابلة ، نعم وما أحسب العلم لولا ذلك إلا خشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية ، ولا بالغابة الكثيفة الملتفة ، التى لا تبرح تمدك بالخشب إثر الخشب فيما تمدك وتعطيك ، ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولا إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبد ، وإلا فما العلم إلا شقشقة كاذبة ، وبقلة كما قلت ذابلة .

الرد على متهمى الاسلام بشهوانيته :

وقد قيل وكتب كثيراً فى شهوانية الدين الإسلامى ، وأرى كل ما قيل وكتب جوراً وظلما ، فإن الذى أباحه محمد مما حرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه ، إنما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الأزل ، وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده ، وجعل عليها من الحدود ما كان فى إمكانه أن يجعل ، والدين المحمدى بعد ذلك ليس بالسهل ولا باللين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء ، والقواعد الصعبة الشديدة ، وإقامة الصلاة خمسا فى اليوم ، والحرمان من الخمر !! وليس كما يزعمون : كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولته ، لأنه من أخش الطعن على بنى آدم والقدح فى أعراضهم ، أن يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل وإتيان الجسائم ، هو طلب الراحة ، واللذة التماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة ! كلا فإن أخس الآدميين

لا يخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندي الجاهل الجلف الذي يؤجر بعينه وروحه في الحروب بأجر بخس ، له مع ذلك « شرف » يحلف به فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفي ، وليست أمنية أحقر الآدميين هي أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتي عملا شريفا وفعلا محموداً ، ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم إلى أبلد إنسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد ، فإذا هو قد تأجج قلبه حماسا واتقدت نفسه غيرة ، وصار في الحال بطلا . وما أظلم الذين يتهمون الإنسان بقولهم إنه ميال بفطرته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة ، إنما مغريات الإنسان وجاذباته هي الأهوال والمصائب والاستشهاد والقتل ، اقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل، تذك ناراً تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص . وما كان قط اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولذة ، بل لما يثور في قلوبهم من دواعي الشرف والعظمة .

براءة محمد من الشهوات وتواضعه وتقشفه :

وما كان محمد أخا شهوات ، برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد ما نجور ونخطىء إذا حسبناه رجلا شهويا ، لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ ، كلا، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت ، لقد كان زاهداً متقشفا في مسكنه ، ومأكله ، ومشربه ، وملبسه ، وسائر أموره وأحواله،وكان طعامه عادة الخبز والماء ،وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار، وانهم ليذكرون ــ ونعم ما يذكرون ــ أنه كان

يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس، خشن الطعام ، مجتهد فى الله قائم النهار ، ساهر الليل ، دائبا فى نشر دين الله ، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت ، رجل عظيم وربكم وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراما وإكباراً وإعظاما ، وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ، ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله، لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء، وغلظة ، وبادرة ، وعجرفية ، وكانوا حماة الأنوف ، أباة الضيم ، وعرو المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم ، وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل ، لما خضعوا له ولا أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه .

وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد ، فى ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة ، وهكذا تكون الأبطال .

مكرمات محمد وأخلاقه :

وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة — صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف ، أن يصعد إلى ربه ، ولا أحسب أن شدة تدينه أذرت بفضله كلا بل زادته فضلا ، وقد يروى عنه مكرمات عالية ، منها قوله حين رزىء غلامه(1) :

(1) أى حين فقد ابنه إبراهيم .

« العين تدمع والقلب يوجع ، ولا نقول ما يسخط الرب ».

ولما استشهد مولاه زيد ابن حارثة في غزوة « مؤتة » قال محمد: « لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، وقد أتى الله اليوم فلا بأس عليه » ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها — وجدت الرجل الكهل الذي دب في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً ! فقالت: « ماذا أرى » ؟؟ قال: « صديقا يبكي صديقه ».

مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا الإنسانية الرحيم، أخانا جميعا الرؤوف الشفيق ، وابن أمنا الأولى وأبينا الأول .

براءة محمد من الرياء والتصنع :

وإني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن الصحراء هذا رجلا مستقل الرأى ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يدّعي ما ليس فيه ، ولم يك متكبراً ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا . فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله ، وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين ، قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة ، وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية ، إذ كان يراها من وحي وجدانه[1] وأوامر شعوره ، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين .

(١) بل هي من وحي إلهي لتكون سنناً من بعده .

ما كان محمد بعابث :

وكان رجلا ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد وطالما كان يذكر يوم « تبوك » إذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال ، واحتجو بأنه أوان الحصيد(١) ، وبالحر ، فقال لهم : الحصيد ! إنه لا يلبث إلا يوما فماذا تتزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم إنه حر ولكن جهنم أشد حراً ، وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية ، إذ يقول للكفار : ستجزون يوم القيامه على أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة. وما كان محمد بعابث قط ، ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب ولهو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء ، ولم يك منه إزاءها إلا الإخلاص الشديد ، والجد المر .

التلاعب بالحقائق من أفظع الجرائم :

فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية ، والعبث بالحقائق ، فما كان من شأنه قط . وذلك عندي أفظع الجرائم ، إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحقائق ، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة ، وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان ، هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل أنه هو نفسه أكذوبة ، وأرى خصلة المروءة والشرف ـ شعاع الله ـ متضائلا في مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت ـ فهو رجل كاذب ، لا أنكر أنه مصقول اللسان ، مهذب حواشي الكلام ، محترم في بعض الأزمان والأمكنة ؛ لا تؤذيك بادرته ؛ لين المس رقيق الملمس ، لكنه كبعض الكربون ، تراه على لطفه سماً نقيعاً وموتاً ذريعاً (٢)

---

(١) القائلون لذلك هم المنافقون لأصحابة الرسول ﷺ .

(٢) من قوله « إذ ليس هو إلا » إلى « موتاً ذريعاً » ، وصف المتلاعب بالحقائق .

المساواة بين الناس من خلال الإسلام :

وفى الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهى التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصدق النظر ، وأصوبه الرأى(١) . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس فى الإسلام سواء .

الزكاة فى الإسلام :

والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة ؛ بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم(٢) ؛ وقاعدة من قواعد الإسلام ، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل ، فتكون جزء من أربعين من الثروة(٣) ؛ تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا ، وما هو إلا صوت الإنسانية — صوت الرحمة والإخاء والمساواة ؛ يصيح من فؤاد ذلك الرجل(٤) — ابن القفار والصحراء .

الجنة والنار فى نظر القرآن :

وينكر البعض تغلب الحسية المادية على جنة محمد وناره ؛ فأقول إن العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء فى الكتاب ، فإن القرآن قد أقل جداً من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه من هذا الشأن إيماء وتلميح ، وإنما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ، ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ،

(١) ليس فى الإسلام رأى ، إنما هو مستمد من الكتاب والسنة والإجماع والقياس عليها .

(٢) هى فرض على القادر من المسلمين (٣) هذا تعميم غير دقيق ، ولكن للزكاة أحكام حسب نوع المال (٤) بل هو من عندالله .

ولا عذابا بدنيا وألما جسمانيا، حتى أسندوه إلى النار(١)، ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قال : ﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ فالسلام والأمن هما فى نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، الشىء الذى عبثا يتلمسه الإنسان فى الحياة الدنيا ، وقال أيضا ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل، إخوانا على سرر متقابلين ﴾ وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر الحزن والمصائب والنقم والآفات ، وأى شىء أهنا من التآلف والتصافى ؟

الصيام فى الإسلام :

وأى دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان، الذى تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقدع عن مآربها وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات ، ولعل أمجد الخصال وأشرف المكارم ، هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وأن يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعيبه وتعتاص عليه ، إذا هم أن يصدعها ، بل حليا وزخارف متى شاء فلا شىء أهون عليه من خلعها ، ولا أسهل من نزعها . وكذلك أمر رمضان، سواء أكان مقصوداً من محمد(٢) معينا ، أو كان وحى الغريزة وإلهاما فطريا ، فهو والله نعم الأمر .

الجنة والنار رمز الحقيقة الأبدية :

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة

---

(١) كلامه ليس صحيحاً لأن للتفسير أصولاً عند المسلمين لم يطلع عليها

(٢) بل هو وحى الله .

أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت فى القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها، وقيام الساعة التى يقول عنها : ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ ماذا ترون كل هذه إلا ظلا تمثل فى خيال النبى(١) الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق أعنى الواجب ، وجسامة أمره ، لقد كان هـذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل إنسانى مهما حقر خطارة كبرى ، فما كان من سيء فله من السوء نتيجة أبدية ، وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية وأن المرء قـد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ، ويهبط بموبقاته إلى أسفل سافلين، وان على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى ، كأنما قـد نقش ثمت بأحرف النار ، وكل ذلك قد حاول فى أشد اخلاص ، وأحد جد ، أن يخرجه للناس ويصوره لهم ، فأخرجه وصوره فى صورة تلكم النار والجنة ، وأى ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة .

منزلة الإسلام فى قلوب المسلمين :

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب(١) من النصرانية ، وفيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم ، والصراط المستقيم لخمس العالم ، وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم

(١) ما يقوله المؤلف خطأ وباطل ولا أساس له .

ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم - إذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والأبد ، وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة (من السائر؟) فيجيبه السائر (لا إله إلا الله). وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار ، فى أرواح تلك الملايين الكثيفة ، وأن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ، ليأتون شعوب الوثنية فى الهند والصين والملايو ، فيهدمون أصنامهم ، ويشيدون مكانها قواعد الإسلام ، ونعم ما يفعلون .

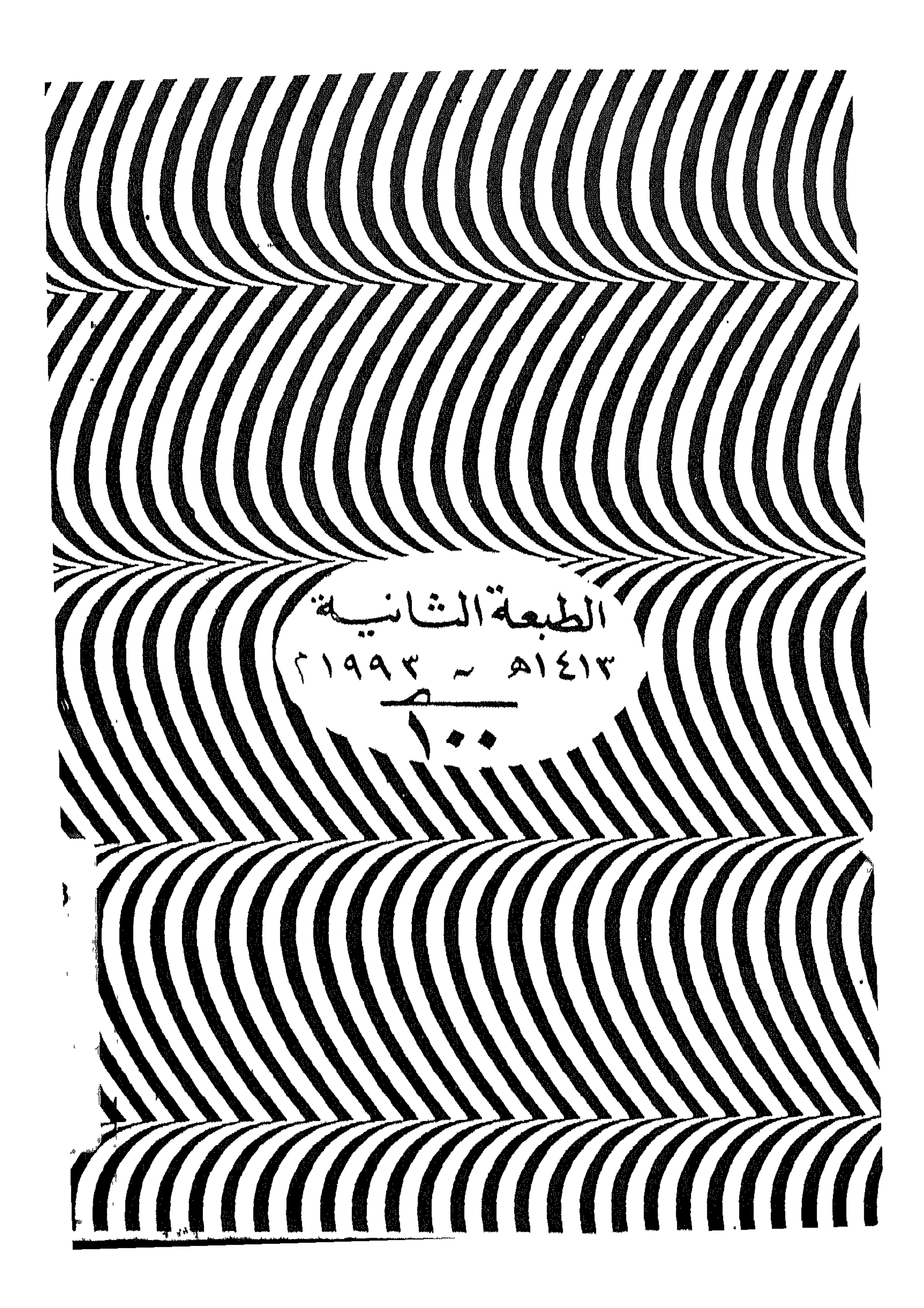
تأثير الإسلام على العرب وفضله عليهم :

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضاً هامدة ، وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب ، خاملة فقيرة تجوب الفلاة ، منذ بدء العالم ، لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة . فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا ، ووسع نوره الأنحاء وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس ، والنجدة . ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة ، وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث

الحياة ومنبع القوة ، وما زال الأمة رق فى درج الفضل ، وتعريج إلى ذرى المجد، ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان ، ألستم ترون فى حالة أولئك الاعراب ومحمدهم وعصرهم ، كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال، التى كان لا يبصر بها فضل، ولا يرجى فيها خير ، فإذا هى بارود سريع الانفجار ، وما هى برمل ميت ، وإذا هى قد تأججت واشتعلت ، واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى.

ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء ، وسائر الناس فى انتظاره كالحطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

[تم الكتاب]


الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
١٠٠